

## معالم الأخلاق و الطب النفسي

Parameters of Morality & Psychiatry

[www.arabpsynet.com/Documents/DocSuddadMorality&Psy.pdf](http://www.arabpsynet.com/Documents/DocSuddadMorality&Psy.pdf)

د. سداد جواد التميمي \*  
استشاري أمراض النفس - كاردف. المملكة المتحدة

[suddad.jawad@btinternet.com](mailto:suddad.jawad@btinternet.com)



### وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (التين 4)

لا بد ان يكون للبشر ملحمة ما تمثل امتداداً لتعليلهم الرفيع السامي حول كيف تم خلق العالم وكيف أصبحت الانسانية جزء منه... الملاحم والمعتقدات الدينية ترضي حاجة بدائية في داخلنا وتؤكد لنا بأننا جزء من شيء اكبر من انفسنا... لكن الطريق لتحقيق هدفنا في توحيد البشرية مروحياً بدلاً من تقسيمها وتفسخها هو ان نسعى الى كتابتها استناداً الى افضل معرفة تجريبية نيزودها لنا العلم والتاريخ....

إدوارد اوسبورن ولسن 1999

الغاية من هذه السلسلة من المقالات هو التطرق الى معالم الاخلاق و تقييمها بصورة نقدية. معالم الاخلاق يبدأ رسمها و تحديدها من قبل الأم و الاب منذ ولادة الطفل حتى رحيله من البيت العائلي . هذه العملية التربوية غايتها بناء ما يسميه علم النفس الانا العليا او Superego وهي لا تختلف تماماً عن ما نسميه الضمير باللغة المتداولة بين الناس. لكن مصطلح الانا العليا المشتق من ثرثرة علم النفس Psychobabbles شائع الاستعمال و لا بأس في استعماله في هذا المقال.

بناء الانا العليا غايته الأولى و الاخيرة هو حماية الانا Ego او يمكن القول حماية الفرد نفسه من الغرائز التي تعمل بصورة مستمرة و كأنها اشبه بماكنة لا تتوقف عن العمل و لا بد من تهدئتها بين الحين و الاخر.

لكن تهدئة الغرائز غير القضاء عليها. القضاء عليها يؤدي الى حالة من اللامبالاة و الاكتئاب و التي بدورها قد تقضي على الفرد عضوياً و فكرياً. على ضوء ذلك ترى المجموعات البشرية تسعى الى خلق حالة من التوازن بين الانا العليا و الغرائز.

علم النفس يحشر جميع الغرائز في بعدين لا اكثر و هما:

- 1 الدوافع العدوانية.
- 2 الدوافع الجنسية.

اما بقية الغرائز مثل الاكل و الشرب و غير ذلك فهي تدخل في عداد الاحتياجات العضوية و تخضع الى محطات سيطرة في الدماغ تم تحديد الواحدة بعد الاخرى بصورة دقيقة لا تقبل الجدل في يومنا هذا.

يغادر الطفل البيت و يبدأ تدخل المجموعات البشرية الاخرى بصورة مباشرة و غير مباشرة لتحديد معالم الاخلاق و بناء الانا العليا. هذه المجموعات البشرية تشمل افراد التعليم، رفاق الدراسة، رجال الدين، و غيرهم. تطورت طرق الاتصال بين الفرد و المجموعات بسرعة خلال القرن الماضي و اصبح مفعولها

معالم الاخلاق يبدأ رسمها و تحديدها من قبل الأم و الاب منذ ولادة الطفل حتى رحيله من البيت العائلي.

الانا العليا غايته الأولاد و الاخيرة هو حماية الانا Ego او يمكن القول حماية الفرد نفسه من الغرائز التي تعمل بصورة مستمرة و كأنها اشبه بماكنة لا تتوقف عن العمل و لا بد من تهدئتها بين الحين و الاخر

أكثر وضوحاً في تحديد معالم الاخلاق و بناء الانا العليا فاليوم هناك الاعلام بجميع انواعه و الأنترنترنت و شركائه من فيس بوك و تويتر .

هذه هي القواعد العامة لمعالم الاخلاق و وظيفتها هي حماية الفرد و قد يقول البعض حماية الاخرين و بقية افراد المجتمع منه كذلك، و لكن الحماية الاخيرة يمكن تفسيرها ايضاً بحماية الفرد بصورة غير مباشرة. الانسان الذي يسرق و يعتدي على الاخرين بدوافع عدوانية او جنسية سيتعرض لردود فعل عدوانية من بقية افراد المجتمع. مع تقدم الحضارات البشرية تم حصر مهمة عقاب المعتدي ضمن اطار معين نسميه القانون و المؤسسات التنفيذية. هذه المعادلة مهمتها حماية الانسان من رد فعل المعتدي اولاً و استمرار عملية بناء الانا العليا في الانسان.

القواعد العامة لمعالم الاخلاق و بناء الانا العليا تم استحداثها منذ بداية الخليفة. عمل بها الانسان منذ مئات الالاف من السنين. يتصور البعض بان الانسان القديم كان اقل فعالية ونجاحاً في بناء الانا العليا و تحديد معالم الاخلاق، و انه مجرد كائن متوحش لا يختلف كثيراً عن الحيوان المفترس.

الاعتقاد الأخير اشتهر في الوسط العلمي و الادبي و السياسي بفضل مقولة مكتشف علم الاجتماع البيولوجي او البيولوجيا الاجتماعية إدوارد ولسن الشهيرة: " الحرب مترسخة في اعماق طبيعتنا". هذه المقولة تكثر الاشارة اليها و خاصة بعد مرور مائة عام على بداية الحرب العالمية الاولى. كذلك يشير اليها البعض عند الحديث عن حملات الارهاب المتلبسة بالإسلام و تلهف ما يُعرفون بالجهاديين في قتل الأبرياء و اعلانهم الحرب ضد الحضارات الاخرى.

لكن الانسان لا يتوقف عند هذا المنعطف و يقبل بنظريات تم اعلانها بدون بحوث علمية دقيقة. اثبتت البحوث العلمية الاخيرة<sup>1</sup> في دراسة جماجم الأنسان القديم و المعروف بالصيدا عدم صحة الفرضية الاخيرة. تم دراسة 21 مجموعة او قبيلة معروفة تاريخياً بولعها بالحرب و القتال. كان الاستنتاج بان القتل بالعنف لم يتجاوز نسبة 15% من مجموع القتلى و ليس هناك دليل بان هؤلاء كانوا ضحايا حروب بل على العكس من ذلك كانوا ضحايا حوادث العنف ضمن افراد القبيلة الواحدة و ليس صراع بين القبائل او صراع بين الحضارات كما هو الحال في يومنا هذا.

كانت النظرية الشائعة منذ أربعينيات القرن الماضي بان التضحية و الجهاد او ما يعرف علمياً بالإيثار من خلال التضحية بالنفس ولد بعد تطور الانسان الحديث Homo-Sapiens من جراء وحشية الصيادين و الحروب بين القبائل. الحقيقة غير ذلك و هي ان الأنسان يميل الى السلم و حرص منذ البداية على السيطرة على الدوافع العدوانية داخله. من هنا يأتي صدق الآية القرآنية الكريمة: " قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ".

يمكن الاستنتاج عند هذه النقطة ما يلي:

1. عملية بناء الأنا العليا مستمرة و طويلة العهد و لم تخضع لعملية تطور منذ مئات الالاف من السنين.

3 عملية السيطرة على الدوافع العدوانية قديمة العهد ايضاً و لم تخضع لعملية تطويرية و هي متأصلة في اعماق البشرية.

4 عملية السيطرة على الدوافع الغريزية ربما كانت مسيرتها كمسيرة السيطرة على الدوافع العدوانية.

5 الدوافع الغريزية لها وظيفة بيولوجية تخضع لنظام العتبات Thresholds. هناك عتبة معينة ان تجاوزتها ادت الى تدمير الذات بصورة مباشرة او غير مباشرة. في عين الوقت ان تم القضاء عليها او السيطرة عليها بقوة فقد تؤدي الى حالة من اللامبالاة و الاكتئاب و تمنع

تطورت طرق الاتصال بين الفرد و المجموعات بسرعة خلال القرن الماضي و أصبح مفعولها أكثر وضوحاً في تحديد معالم الاخلاق و بناء الانا العليا

ان الأنسان يميل الى السلم و حرص منذ البداية على السيطرة على الدوافع العدوانية داخله. من هنا يأتي صدق الآية القرآنية الكريمة: " قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ".

عملية السيطرة على الدوافع العدوانية قديمة العهد ايضاً و لم تخضع لعملية تطويرية و هي متأصلة في اعماق البشرية

عملية السيطرة على الدوافع الغريزية ربما كانت مسيرتها كمسيرة السيطرة على الدوافع العدوانية

يلجأ الفرد الى

الأنسان من التطور .

### الطب النفسي

ليس هناك ما يثير الجدل بين الباحثين في مختلف العلوم الاجتماعية مثل دور الطب النفسي في معالم الأخلاق. كل ما اقم الطب النفسي نفسه في تفسير ممارسات فردية اخلاقية و حشرها ضمن الاضطرابات العقلية يجد نفسه في تناقض و ازمة مع المجتمع الذي ينتمي اليه. يحاول الطب النفسي و يفشل في علاج السلوك البشري الغير ناتج من اضطراب عقلي و يجد المعالج النفسي نفسه في حالة احباط لا يُحسد عليها. لا يقتصر هذا الفشل على المدرسة التحليلية و انما يشمل المدرسة السلوكية و المعرفية .

يفضل المجتمع دوماً اللجوء الى ما يمكن تسميته بالنموذج الاخلاقي Moral Model في معالجة الانحراف الاجتماعي. يستند هذا النموذج على فرضية واحدة و هي ان الأنسان المنحرف يبحث عن المتعة من خلال سلوكه و لا يبالي بمشاعر الآخرين. يمكن تتبع هذا النموذج في سائر المعتقدات الدينية و الاعراف الاجتماعية التي تستند على قاعدة الخطيئة و العقاب. يلجأ الفرد الى الانحراف من جراء ضعف في قوة الارادة و علاج الفرد هو اعترافه اولاً بانحرافه و سعيه الى رفع درجة قوة الارادة بطريقة او بأخرى. من هنا يمكن القول بان الانسان يتحمل مسؤولية و نتائج اعماله و صدق الله رب العالمين في قوله: " ذلك بما قدمت يدك و ان الله ليس بظلم للعبيد" - الحج 10.

بعد ان ادرك الطب النفسي ان النماذج النفسية غير قادرة على تفسير الانحراف بدأ يتجه نحو استحداث نموذج طبي Disease Model لتفسير و علاج المنحرف المُعرف اجتماعياً . يمكن تتبع جذور هذا النموذج في بداية الثمانينات في دراسة الادمان على الكحول<sup>2</sup> . فشلت الدراسات العلمية في اثبات اهمية البيئة الاجتماعية و التربية العائلية في التنبؤ بإصابة الفرد بالإدمان باستثناء سلوك واحد فقط و هو السلوك المضاد للمجتمع Antisocial . اما الاعراض النفسية مثل القلق و الاكتئاب و الرهاب فما هي الا مجرد مضاعفات للإدمان و السلوك فقط و ليست سبباً في الاتجاه نحو الادمان. على ضوء ذلك لا بد من التحري على اضطرابات عضوية تفسر الانحراف و علاجه بالعقاقير . هذا ما يحدث دوماً في علاج الادمان على الكحول و على مشتقات الافيون حيث شاع استعمال النموذج المرضي و اثبتت الدراسات فاعليته. اما اضطراب عجز الانتباه و فرط الحركة فهو الاخر بدأ يحتل موقعه في تفسير السلوك الانحرافي و يكثر تشخيصه في السجناء، و لكن الدليل على العلاج في تغيير سلوك الفرد يصعب اثباته و ربما نضوج الفرد عضوياً هو العامل الاول و الاخير في تغيير مسيرة الفرد المصاب بهذا الاضطراب اجتماعياً. اما السلوك الإجرامي و الجنسي فلا يزال يخضع للنموذج الاخلاقي .

رغم ان جميع الفروع الطبية تخضع للشفرة الاخلاقية Moral Code للمجموعة التي تمارس فيها ، و لكن الطب النفسي يجد نفسه في ازمة مع المجتمع الذي قد يطلب منه ما يلي:

- 1 تشخيص اضطراب عقلي لتفسير السلوك المعادي للمجتمع و علاجه.
- 2 تفسير السلوك علمياً في غياب اضطراب عقلي.
- 3 معالجة السلوك في غياب اضطراب عقلي.

الخطوة الأولى لا بد منها و على الطبيب النفسي ابداء رايه بأمانة. الثانية صعبة و تضعه في مواجهة مع الشفرة الاخلاقية للمجتمع. اما الخطوة الثالثة فهي مستحيلة و عليه ان يحرص ان لا يقحم نفسه فيها.

الانحراف من جراء  
ضعف في قوة  
الارادة و علاج الفرد  
هو اعترافه اولاً  
بانحرافه و سعيه الى  
رفع درجة قوة  
الارادة بطريقة او  
بأخرى. من هنا يمكن  
القول بان الانسان يتحمل  
مسؤولية و نتائج اعماله  
و صدق الله رب  
العالمين في قوله:  
" ذلك بما قدمت يدك  
و ان الله ليس بظلم  
للعبيد" - الحج 10.

بعد ان ادرك الطب  
النفسى ان النماذج  
النفسية غير قادرة  
على تفسير الانحراف  
بدأ يتجه نحو  
استحداث نموذج  
طبي Disease  
Model لتفسير و علاج  
المنحرف المُعرف  
اجتماعياً

اما اضطراب عجز  
الانتباه و فرط الحركة  
فهو الاخر بدأ يحتل  
موقعه في تفسير  
السلوك الانحرافي و  
يكثر تشخيصه في  
السجناء

## المصادر:

- ادوارد اوسبورن ولسن Edward Osborne Wilson هو من اشهر علماء الأحياء. عانى من فقدان البصر في عينه اليسرى بعد حادثة و بعدها بأشهر تدهور النظر كذلك في عينه اليمنى. انفصل الاب عن الام في تلك المرحلة و رغم ذلك استمر في سعيه الى العلم و المعرفة و حصل على الدكتوراه من هارفارد، و تقاعد من الخدمة عام 1996. مقولته اعلاه تشير الى ان البشر يبحثون دوماً عن بعد بطولي في حياتهم، و السؤال الذي يتم طرحه هل الكون الذي نعيش فيه مليء بقيم قدسية ، ام ان برمجة البشر انفسهم للقيم و الاخلاق هو كل ما يهمنا. في نهاية الامر لن يصل بنا الغباء لكي نستمر في تدمير انفسنا و كل ما حولنا ( حديث لبراين سوم 1997). نشر كتابه في طبيعة البشر عام 1978 و حاز الكتاب على جائزة بوليتزر عام 1979.
  - يمكن الاطلاع على وظائف الفص الجبهي و تقييمه من مقالة الوظائف الجبهية التنفيذية من المذاكرة الى الطب النفسي على موقع مجانيين بتاريخ 2012-11-05.  
<http://www.maganin.com/content.asp?contentid=19448>
  - يمكن الاطلاع على مقالات عجز الانتباه و فرط الحركة في البالغين على موقع مجانيين بتاريخ 2012-11-05.  
<http://www.maganin.com/contentlist.asp?CatId=49&ContentType=Article>
- 1 Fry D, Sorderberg P(2013). Lethal Aggression in Mobile Forager Bands and Implications for the Origins of War. Science 341, 270.
  - 2 Vaillant G(1983). The natural history of alcoholism. Cambridge, MA, Harvard University Press.

اما السلوك الإجرامي و الجنسي فلا يزال يخضع للنموذج الاخلاقي .  
رغم ان جميع الفروع الطبية تخضع للشفرة الاخلاقية Moral Code  
للمجموعة التي تمارس فيها ، و لكن الطب النفسي يجد نفسه في ازمة مع المجتمع الذي قد يطلب منه ما يلي:  
1 تشخيص اضطراب عقلي لتفسير السلوك المعادي للمجتمع و علاجه  
2 تفسير السلوك علمياً في غياب اضطراب عقلي.  
3 معالجة السلوك في غياب اضطراب عقلي.

\*\*\*\* \*\*

## جوائز اتحاد الأطباء النفسيين العرب 2014

جائزة " احمد عكاشة للطب النفسي العربي "

[www.arabpsynet.com/Associations/AFP/AFP-OkashaPrize.pdf](http://www.arabpsynet.com/Associations/AFP/AFP-OkashaPrize.pdf)

<https://www.facebook.com/notes/arabpsynet-mails/444247042325075>

جائزة البحث العلمي للأطباء النفسيين الشبان العرب

دعوة للتسجيل

<http://www.arabpsynet.com/Associations/AFP/AFP-YoungPrize.pdf>

<https://www.facebook.com/notes/arabpsynet-mails/443797259036720>